البَابُ الثَّامِنُ

في

صدق التوبة إلى الله عزّ وجلّ

obeikandl.com

obeikandl.com

(أ) فتح باب التوبة ودعاء جميع العباد للولوج منه

التوبة: هي وظيفة العمر، ولا يستغني عنها العبد السالك إلى ربه ﷻ.

قال بعض السلف: من لم يتب كل صباح ومساء كان من الظالمين.

قال الله ﷻ: ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الحجرات: ١١].

وقال النبي ﷺ: «كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ»(١).

والله - ﷻ - قد فتح هذا الباب العظيم (باب التوبة) ودعا جميع العباد للولوج منه حتى يتخلصوا من الذنوب والمعاصي في الدنيا والآخرة، ويفوزوا بسعادة العاجلة والآجلة.

دعا إليها المنافقين فقال ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١٤٥-١٤٦].

ودعا إليها اليهود والنصارى الذين قالوا: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾ [آل عمران: ١٨١]، والذين قالوا: ﴿ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ﴾ [المائدة: ٦٤]، فقال ﷻ: ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٧٤].

ودعا إليها المشركين كافة، فقال الله ﷻ: ﴿ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ﴾ [التوبة: ١١].

ودعا إليها المسرفين على أنفسهم من أمة النبي ﷺ وغيرهم فقال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣].

---

(١) رواه الترمذي [٢٤٩٩] صفة القيامة، وابن ماجه [٤٢٥١] الزهد، والدارمي (٢/ ٣٠٣) الرقاق، وأحمد (٣/ ١٩٨) وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث علي بن سعدة عن قتادة، وحسنه الألباني.

كما دعا إليها المؤمنين الصادقين، فأمر الله - ﷻ - أصحاب النبي ﷺ بالتوبة بعد إيمانهم، وهجرتهم، وجهادهم، وصبرهم، فقال ﷻ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

فهذه آية مدنية أي: نزلت بعد الهجرة، وعلق الله - ﷻ - فلاحهم بالتوبة فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧].

وإنما يغلق هذا الباب العظيم باب التوبة عند حشرجة الموت، وعندما تصل الروح إلى الحلقوم، قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء: ١٨]، فسوى الله - ﷻ - بين من يتوب عند موته ومن يموت بغير توبة في عدم قبول توبته.

وقال النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ»(١).

ولما قال فرعون عند الغرق: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]، قال الله تعالى: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١].

وقال الحسن: ابن آدم، لا يجتمع عليك خصلتان: سكرة الموت، مع حسرة الفوت (أي فوت التوبة).

وقيل في تفسير قوله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤]: وحيل بينهم وبين التوبة حين سألوها.

(١) رواه الترمذي (١٣/ ٥٨) الدعوات، وأحمد [٦١٦٠ شاكر]، وابن ماجه [٤٢٥٣]، والحاكم (٤/ ٢٥٧) التوبة، وصححه ووافقه الذهبي، وقال الترمذي: حسن غريب، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح، وحسنه الألباني.

كما يغلق باب التوبة كذلك أمام الخلق كلهم عند طلوع الشمس من مغربها، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس أجمعون فذلك حين لا ينفع نفسًا إيمانها، وذكر الآية.

وقال صلى الله عليه وسلم: «**إِنَّ اللهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا**»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا تَابَ اللهُ عَلَيْهِ**»(٢).

وقد أمر الله عز وجل بالتوبة النصوح فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التحريم: ٨].

والنصح في التوبة: هو تخليصها من كل غِشٍ، ونقصٍ، وفسادٍ.

قال الحسن البصري: هي أن يكون العبد نادمًا على ما مضى، مجمعًا على ألا يعود فيه.

وقال الكلبي: أن يستغفر باللسان، ويندم بالقلب، ويمسك بالبدن.

وقال سعيد بن المسيب ﴿تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ تنصحون بها أنفسكم.

وقال ابن القيم: النصح في التوبة يتضمن ثلاثة أشياء:

الأول: تعميم جميع الذنوب واستغراقها، بحيث لا تدع ذنبًا إلَّا تناولته.

الثاني: إجماع العزم والصدق بكليته عليها، بحيث لا يبقى عنده تردد ولا تلوم ولا انتظار، بل يجمع عليها كل إرادته وعزيمته مبادرًا بها.

---

(١) رواه مسلم (١٧/ ٧٦) التوبة.

(٢) رواه مسلم (١٧/ ٢٥) الذكر والدعاء.

الثالث: تخليصها من الشوائب والعلل القادحة في إخلاصها، ووقوعها لمحض الخوف من الله وخشيته، والرغبة فيما لديه، والرهبة مِمّا عِنده، لا كمن يتوب لحفظ حاجته وحرمته ومنصبه.

وتوبة العبد إلى الله – ﷻ – محفوفة بتوبتين من الله ﷻ: توبة قبلها، وتوبة بعدها، الأولى: إذن وتوفيق، والثانية: قبولٌ وإثابةٌ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨]، فأخبر الله ﷻ أن توبته عليهم سبقت توبتهم، وأنها هي التي جعلتهم تائبين، فكانت سببًا مقتضيًا لتوبتهم، وهذا القدر من سِرّ اسميه «**الأول والآخر**» فهو المُعِدّ والمُمِدّ، ومنه السبب والمسبَب، والعبد توَّابٌ والرب تواب، فتوبة العبد رجوعه إلى سيده بعد الإباق، وتوبة الرب نوعان: إذن وتوفيق، وقبول وإثابة.

والتوبة لها مبدأ ومنتهى، فمبدؤها الرجوع إلى الله ﷻ، بسلوك صراطه المستقيم الذي أمر بسلوكه بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، ونهايتها الرجوع إليه في الميعاد، وسلوك صراطه الذي نَصَبَه موصلًا إلى جنته، فمن رجع إلى الله في هذه الدار بالتوبة، رجع إليه في المعاد بالثواب، قال الله ﷻ: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابٗا﴾ [الفرقان: ٧١].

(ب) شروط صحة التوبة

١ – **الشرط الأول من شروط صحة التوبة الإخلاص**: فإن التوبة عبادة، يشترط لها ما يشترط لسائر العبادات من الإخلاص، كما قال النبي ﷺ: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ**»(١).

(١) رواه البخاري (١/ ٩) بدء الوحي، ومسلم (١٣/ ٥٣، ٥٤) الإمارة، وأبو داود (٦/ ٢٨٤، ٢٨٥ عون) الطلاق، والنسائي (١/ ٥٩، ٦٠) النية.

فلابد أن يقصد التائب بتوبته رضا الله - ﷻ - ودخول جنته، والنجاة من عذابه؛ لأن العبد قد يترك الذنب لحفظ جاهه أو سلطانه أو لطلب شيء من الدنيا.

٢- **الشرط الثاني: الإقلاع عن الذنوب:** فتستحيل التوبة مع مقارفة الذنوب.

٣- **الشرط الثالث: الندم على فعلها:** والندم توبة، وإذا لم يندم القلب على القبيح دل على رضاه به، والذنب إما أن يحرق بنار الندم في الدنيا، أو يحرق بنار الآخرة.

٤- **الشرط الرابع: العزم على عدم العودة:** فهو صدق الاستقامة على الطاعة.

وشرط بعض العلماء عدم معاودة الذنب، وقالوا: متى عاد إليه تبيّنّا أن توبته كانت باطلة غير صحيحة، والأكثرون على أن ذلك ليس بشرط، فقد يعزم العبد عزمًا أكيدًا على عدم العودة إلى الذنب، ثم تضعف نفسه ويغلبه شيطانه فيقع في الذنب مرة أخرى، وقد ييأس العبد من طريق الله ﷻ، ولا يجد إلا طريق الشيطان.

قال رجل للحسن: أما يستحي أحدنا يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب؟ فقال: ودَّ الشيطان لو ظفر منكم بهذه فلا تملوا من الاستغفار.

٥- **الشرط الخامس: ردُّ المظالم:** كما قال النبي ﷺ: «**من كان لأخيه عنده مظلمة من مَالٍ أو عرضٍ، فليتحلله اليوم من قبل ألا يكون دينار ولا درهم، إلا الحسنات والسيئات**»(١).

فيجب على المسلم أن يرد المظالم إلى أهلها قبل أن يكون التعامل بالعملة الصعبة؛ بالحسنات والسيئات، في وقت لا يستطيع المؤمن أن يزيد في حسناته حسنة، أو ينقص من سيئاته سيئة؛ ولذا قال النبي ﷺ: «**اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ**»(٢).

فقد يكون العبد محتاجًا إلى أجر التصدق بشق تمرة، حتى يفوز بجنة الله، وينجو من عذابه.

---

(١) رواه البخاري (٥/ ١٠١) المظالم، والترمذي (٩/ ٢٥٤ عارضة) صفة القيامة بمعناه.

(٢) رواه البخاري (١٣/ ٤٨٢) التوحيد، ومسلم (٧/ ١٤١، ١٤٢) الزكاة، واللفظ له.

٦- الشرط السادس: أن تقع التوبة في الوقت الذي تقبل فيه التوبة، قبل الغرغرة، وكذا قبل طلوع الشمس من مغربها.

(جـ) علامات صحة التوبة

من علامات صحة التوبة أن يكون بعد التوبة خيرًا مما كان قبلها.

* ومنها ألا يزال الخوف مصاحبًا له، لا يأمن مكر الله طرفة عين، فخوفه مستمر إلى أن يسمع قول الرسل: ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]، فهناك يزول خوفه.

* ومنها انخلاع قلبه، وتقطعه ندمًا وخوفًا، وهذا على قدر عظم الجناية وصغرها، وهذا تأويل ابن عيينة لقوله تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة: ١١٠].

قال: تقطعها بالتوبة، ومن لم يتقطع قلبه في الدنيا على ما فرط منه تقطع في الآخرة، إذا حَقَّت الحقائق، وعاين ثواب المطيعين، وعقاب العاصين، فلابد من تقطع القلب، إما في الدنيا، وإما في الآخرة.

* ومنها كسرة خاصة تحصل للقلب لا يشبهها شيءٌ، ولا تكون لغير المذنب، لا تحصل بجوع ولا رياضة، ولا حب مجرد، إنما هي أمر وراء هذا كله، تكسر القلب بين يدي الرب كسرة عامة، قد أحاطت به من جميع جهاته، وألقته بين يدي ربه طريحًا ذليلًا خاشعًا، كحال عبد آبقٍ من سيده، فأخذ فأحضر بين يديه، ولم يجد من ينجيه من سطوته، ولم يجد منه بُدًا، ولا عنه غناء ولا منه مهربًا، وعلم أنّ حياته وسعادته، وفلاحه ونجاحه في رضاه عنه، وقد علم إحاطة سيده بتفاصيل جنايته، هذا مع حبه لسيده، وشدة حاجته إليه، وعلمه بضعفه وعجزه، وقوة سيده، وذله وعِز سيده.

obeikandl.com

فيجتمع في هذه الأحوال كسرة وذلة وخضوع، ما أنفعها للعبد وما أجدى عائدتها عليه، وما أعظم جبره بها، وما أقربه بها من سيده، فليس شيءٌ أحب إلى سيده من هذه الكسرة والخضوع والتذلل والإخبات والانطراح بين يديه والاستسلام له.

فلله ما أحلى قوله في هذه الحال: أسألك بعزك وذُلي إلا رحمتني، أسألك بقوتك وضعفي، وبغناك عنِّي وفقري إليك.

هذه ناصيتي الكاذبة الخاطئة بين يديك، عبيدك سواي كثير، وليس لي سيد سواك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، أسألك مسألة المسكين، وأبتهل إليك ابتهال الخاضع الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير، سؤال من خضعت لك رقبته، ورغم لك أنفه، وفاضت لك عيناه، وذَلَّ لك قلبه:

يَا مَنْ أَلُوذُ بِهِ فيمَا أُؤَمِّلُهُ ... وَمَنْ أَعُوذُ بِهِ مِمَّا أُحَاذِرُهُ
لا يَجْبُرُ النَاسُ عَظْمًا أَنتَ كَاسِرُهُ ... وَلا يَهِيْضُونَ عَظْمًا أَنتَ جَابِرُهُ

فهذا وأمثاله من آثار التوبة المقبولة، فمن لم يجد ذلك في قلبه فليتهم توبته، وليرجع إلى تصحيحها، ما أصعب التوبة الصحيحة بالحقيقة، وما أسهلها باللسان والدعوى.

(د) أقسام الناس في التوبة

الناس في التوبة على أقسام: فمنهم من لا يُوفق لتوبة نصوح، بل ييسر له عمل السيئات من أول عمره إلى آخره، حتى يموت مصرًا عليها، وهذه حالة الأشقياء، فلا يدخل بيت الله ﷻ إلا مرة واحدة، ولا يدخل على قدميه بل محمولًا على خشبته، ولا يدخل من أجل أن يصلي، بل من أجل أن يُصلَّى عليه، ثم لا يعود إليه مرة ثانية.

القسم الثاني: من يعمل بطاعة الله ﷻ زمنًا من عمره، وبُرهة من دهره، ثم ينقلب لعلم الله ﷻ فيه، فيعمل بمعصية الله ﷻ ويموت على ذلك. ما أصعب العمى بعد البصيرة، وأصعب منه الضلالة بعد الهدى، والمعصية بعد التقى، كم وجوه خاشعة وُقِّع على قصص أعمالها: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ [الغاشية: ٣-٤].

كم من شارف مركبه ساحِلَ النجاة فلما هَمّ أن يرتقي لعب به موج فغرق، كل العباد تحت هذا الخطر، قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، ليس العَجَب ممن هلك كيف هلك، إنما العجب ممن نجا كيف نجا، قال النبي ﷺ: **«والذي نفسي بيده! إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينها وبينه إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها»**(١).

وتقول السيدة عائشة رضي الله عنها: إن الرجل ليعمل زمانًا بعمل أهل الجنة وهو من أهل النار.

قال النبي ﷺ: **«إنما الأعمال بالخواتيم»**(٢).

أي: من ختم له بعمل من أعمال أهل الجنة دخل الجنة، ومن ختم له بعمل من أعمال أهل النار دخل النار، نسأل الله حسن الخاتمة.

مات كثير من المصرِّين على المعاصي على أقبح أحوالهم، وهم مباشرون للمعاصي، فكان ذلك خزيًا لهم في الدنيا، مع ما صاروا إليه من عذاب الآخرة، وكثيرًا ما يقع هذا للمصرين على الخمر المدمنين لشربها:

أَتأمَنُ أَيُّها السَّكْرَانُ جَهْلا ... بِأنْ تَفْجَأكَ فِي السُّكْرِ المَنِيَّة
فَتَضْحَى عِبْرَةً لِلنَّاسِ طَرًا ... وَتَلْقَى الله مِن شَرِّ البَرِيَّة

القسم الثالث: من يعمل بمعصية الله - عز وجل - زمانًا من عمره، ثم يوفق لتوبة نصوح فيعمل بطاعة الله عز وجل، ويموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخلها، قال النبي ﷺ: **«وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»**(٣).

---

(١) رواه البخاري (٦/ ٣٠٣) بدء الخلق، ومسلم (١٦/ ١٩٠) القدر.
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) تقدم تخريجه.

ومن هؤلاء من يتوب قبل موته بمدة تؤهله لأعمال صالحة يبلغ بها الدرجات، ومنهم من يتوب قبل موته بقليل، وحسبه أن ينجو من اللفحات، ويفوز بالجنات.

اللهم اجعل خير أعمالنا خواتيمها، وخير عمرنا آخره.

بقى ها هنا قسم هو أشرف الأقسام وأرفعها، وهو من يفني عمره في الطاعة، ثم ينبه على قرب الأجل ليجدّ في التزود، ويتهيأ للرحيل بعملٍ يصلُحُ لِلقاء ويكون خاتمة للعمل، قال ابن عباس: لما نزلت على النبي ﷺ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ...﴾ [النصر: ١] نَعَتْ لرسول الله ﷺ نفسه فأخذ في أشد ما كان اجتهادًا في أمر الآخرة.

قالت أم سلمة: كان النبي ﷺ في آخر أمره لا يقوم ولا يقعد ولا يذهب ولا يجيء إلا قال: سبحان الله وبحمده، فذكرت ذلك له فقال: «**إني أُمرت بذلك**»، وتلا هذه السورة، وكان من عادته ﷺ أن يعتكف في كل عام في رمضان عشرًا، ويَعْرض القرآن على جبريل مرة، فاعتكف في ذلك العام عشرين يومًا، وعرض القرآن مرتين، وكان يقول: «**ما أرى ذلك إلا لاقتراب أجلي**» ثم حَجَّ حجة الوداع، وقال للناس: «**خُذُوا عَنِّى مَنَاسِكَكُمْ؛ فَلَعَلِّى لاَ أَلقاكم بَعْدَ عَامِى هَذَا**»، وطفق يودع الناس، فقالوا: هذه حجة الوداع، ثم رجع إلى المدينة فخطب قبل وصوله إليها، وقال: «**أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَنِى رَسُولُ رَبِّى فَأُجِيبَهُ**»، ثم أمر بالتمسك بكتاب الله، ثم توفي بعد وصوله إلى المدينة بيسير ﷺ.

إذا كان سيد المحسنين ﷺ يؤمر بأن يختم عمره بالزيادة في الإحسان، فكيف يكون حال المسيء[1]؟!

(هـ) وجوب التوبة إلى الله ﷻ على الفور

قال النووي رحمه الله: وقد تظاهرت دلائل الكتاب والسنة وإجماع الأمة على وجوب التوبة، قال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

(١) «لطائف المعارف» (٣٥٩-٣٦٠) لابن رجب الحنبلي، ط. دار الجيل.

و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ﴾ [هُود: ٩٠].

و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾ [التَّحْرِيم: ٨].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**وَاللهِ إِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً**»(١).

وعن الأغر بن يسار المزني رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**يا أيها الناس! توبوا إلى الله واستغفروه، فإني أتوب إليه في اليوم مائة مرة**»(٢).

فالتوبة واجبة على الفور، وتأخير التوبة ذنب يجب التوبة منه.

قبيح بالشاب تأخير التوبة، وأقبح منه تأخير الشيخ لها؛ فإن الرجل إذا شاب صار كالحامل التي أتمت شهور حملها تسعة أشهر، ما تنتظر إلا الولادة.

قال عمير بن هانئ: تقول التوبة للشاب: أهلًا ومرحبًا، وتقول للشيخ: نقبلك على ما كان منك.

الشاب ترك المعصية مع قوة الداعي إليها، والشيخ قد ضعفت شهوته وقلّ داعيه، فلا يستويان.

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله: واعلم أن الإنسان ما دام يأمل الحياة فإنه لا يقطع أمله من الدنيا، وقد لا تسمح نفسه بالإقلاع عن لذاتها وشهواتها من المعاصي وغيرها ويرجيه الشيطان بالتوبة في آخر عمره، فإذا تيقن الموت وأيس من الحياة أفاق من سكرته بشهوات الدنيا، فندم حينئذٍ على تفريطه ندامة يكاد يقتل نفسه، وطلب الرجعة إلى الدنيا ليتوب ويعمل صالحًا فلا يجاب إلى شيء من ذلك، فيجتمع عليه سكرة الموت مع حسرة الفوت، وقد حذر الله في كتابه عباده مع ذلك ليستعدوا للموت قبل نزوله بالتوبة والعمل الصالح.

---

(١) رواه البخاري (١١/ ١٠١) الدعوات.

(٢) رواه مسلم (١٧/ ٣٩) الذكر والدعاء والتوبة، وأبو داود [١٥٠١ عون] الصلاة.

obeikandi.com

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ٥٤ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٥٥ أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر: ٥٤-٥٦].

و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠].

فالبدار البدار إلى التوبة، قبل أن تعمل سموم الذنوب بروح الإيمان عملًا يجاوز الأمر فيه مجهود الأطباء واختبارهم، فلا ينفع بعد ذلك نصح الناصحين، ووعظ الواعظين، وتحق الكلمة عليه أنه من أصحاب الجحيم.

التوبة التوبة؛ قبل أن يأتيكم من الموت النوبة، فلا تحصلوا إلا على الخسران والخيبة، الإنابة الإنابة؛ قبل غلق باب الإجابة، الإفاقة الإفاقة؛ فقد قرب وقت الفاقة.

أيها العاصي، ما يقطع من صلاحك الطمع، ما نَصبْنَا اليومَ شَرَكَ المواعظ إلا لتقع، فإذا خرجت من المجلس وأنت عازم على التوبة فقال لك رفقاؤك في المعصية: هَلُمَّ إلينا، فقل لهم: كَلا، ذاك خمر الهوى الذي عهدتموه قد استحال خَلًّا، يا من سَوَّد كتابه بالسيئات أما آن لك بالتوبة أن تمحو؟! يا سكران القلب بالشهوات، أما آن لفؤادك أن يصحو؟!

(و) مواقف إيمانية في صدق التوبة

١- توبة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٥ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ٣٦ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ٣٥-٣٧].

والجمهور على أن الجنة التي أخرج منها آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ هي جنة المأوى، والألف واللام للعهد، وكذا قول موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**عَلَام أخرجتنا ونفسك من الجنة؟!**»(١).

وعن أبي هريرة وحذيفة قالا: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يجمع الله الناس فيقوم المؤمنون حين تزلف لهم الجنة، فيأتون آدم: فيقولون: يا أبانا.. استفتح لنا الجنة، فيقول: وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم**»(٢).

ومحصل قصة الخطيئة والتوبة أن الله - عَزَّ وَجَلَّ - نهى آدم وزوجه عن الاقتراب من شجرة معينة في الجنة، ولم يفصح القرآن ولا السنة الصحيحة عن طبيعة هذه الشجرة، وليست هي شجرة الجنس كما زعم بعض المتأخرين بغير دليل، ثم وسوس لهما الشيطان الرجيم بأن هذه الشجرة هي شجرة الخلد، ومن أكل منها فإنه يخلد في جنة الله عَزَّ وَجَلَّ، وحلف لهما بالله إنه لهما لمن الناصحين واستبعد آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يحلف أحدٌ بالله - عَزَّ وَجَلَّ - وهو كاذب، فأكلا من الشجرة، فبدت لهما سوءاتهما، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة، ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٢-٢٣].

والمعصية يكون بعدها هبوط وحرمان، فيحرم المؤمن الرزق بالذنب يصيبه، ويحرم ما يجده من حلاوة الإيمان والأنس بالرحمن، ولكن آدم وحواء - عليهما السلام - عَرَفَا طريق النجاة والتوبة ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

قال الزمخشري: معنى تقلي الكلمات استقبالها بالأخذ والقبول، والعمل بها حين علمها(٣).

---

(١) رواه البخاري (١١/ ٥٠٥) القدر، ومسلم (١٦/ ٢٠٢) القدر، وأبو داود [٤٦٧٦] والترمذي (٨/ ٢٩٨) القدر.

(٢) رواه مسلم (٣/ ٦٩-٧٠) الشفاعة.

(٣) «الكشاف» (١/ ١٢٨).

أما الكلمات التي تلقاها آدم فقد بينها الله ﷻ في موضع آخر وهي: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

ولولا صدق آدم عليه السلام في التوبة ما فتح الله - ﷻ - عليه وعلمه هذه الكلمات، فإذا صدق المؤمن في طلب التوبة سهل الله - ﷻ - له أسبابها، وتقبلها منه، فتوبة العبد محفوفة بتوبتين من الرب ﷻ، نسأل الله أن يرزقنا توبةً نصوحًا.

٢- توبة داود عليه السلام:

قال تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [ص: ٢١-٢٥].

ومحصل قصة توبة داود عليه السلام أنه كان يعبد الله - ﷻ - في محرابه - أي مسجده - فدخل عليه رجلان في غير وقت القضاء، وطلبا منه الحكم فيما بينهما من خصومة، فقال أحدهما: إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة، فأراد أن يضمها على نعاجه، وغلبني في المكالمة.

فبادر داود عليه السلام بالحكم له دون أن يسمع حجة الآخر.

وقد قال النبي ﷺ: «**إذا جلس إليك الخصمان فلا تقض لأحدهما حتى تسمع من الآخر**»(١)، وقال بعضهم: إذا أتاك الخصْمُ وقد فقئت عينه فلا تحكم له حتى ترى الآخر فلعله فقئت عيناه.

---

(١) رواه أبو داود (٢/ ١١٤، ١١٥)، والحاكم (٤/ ٩٣) وأحمد (١/ ٩٦-١١١) وغيرهم، وصححه الألباني في «الصحيحة» [١٣٠٠].

وبعد أن حكم داود هذا الحكم أحس بأنه وقع في خطيئة فخر ساجدًا لله ﷻ تائبًا إليه، فغفر الله - ﷻ - له هذا الذنب فقال تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ أي: مرجعًا حسنًا وكرامة في الآخرة.

قال القرطبي: ومعنى السجود؛ أن داود سجد خاضعًا لربه معترفًا بذنبه، تائبًا من خطيئته، فإذا سجد أحد فيها فليسجد بهذه النية، فلعل الله أن يغفر له بحرمة داود، الذي اتبعه، وسواءٌ قلنا: إن شرع من قبلنا شرع لنا أم لا، فإن هذا أمر مشروع في كل أمة ولكل أحدٍ، والله أعلم(١).

وقد أكثر المفسرون من ذكر الإسرائيليات الواهية في قصة داود عليه السلام، ونسبوا إليه ما يتنزه عنه آحاد المؤمنين، وهذه الإسرائيليات تنافي عصمة الأنبياء وارتفاع درجتهم وعلو مرتبتهم.

٣- توبة الذي قتل مائة نفس من بني إسرائيل:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ إِنْسَانًا، ثُمَّ خَرَجَ يَسْأَلُ، فَأَتَى رَاهِبًا فَسَأَلَهُ فَقَالَ لَهُ: هَلْ مِنْ تَوْبَةٍ؟ قَالَ: لَا، فَقَتَلَهُ فَجَعَلَ يَسْأَلُ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: ائْتِ قَرْيَةَ كَذَا وَكَذَا، فَأَدْرَكَهُ الْمَوْتُ فَنَاءَ بِصَدْرِهِ نَحْوَهَا فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَى هَذِهِ أَنْ تَقَرَّبِي وَأَوْحَى اللهُ إِلَى هَذِهِ أَنْ تَبَاعَدِي، وَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَهُمَا فَوُجِدَ إِلَى هَذِهِ أَقْرَبَ بِشِبْرٍ فَغُفِرَ لَهُ**».

ورواه مسلم بلفظ: «**كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ فَأَتَاهُ فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: لَا فَقَتَلَهُ فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً**.

(١) باختصار من «الجامع لأحكام القرآن» (٧/ ٥٦٢٧).

ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ، انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنَّ بِهَا أُنَاسًا يَعْبُدُونَ اللهَ فَاعْبُدْ اللهَ مَعَهُمْ، وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ.

فَانْطَلَقَ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، فَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ: جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلًا بِقَلْبِهِ إِلَى اللهِ، وَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ: إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ، فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ، فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ فَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ فَإِلَى أَيَّتِهِمَا كَانَ أَدْنَى فَهُوَ لَهُ، فَقَاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ، فَقَبَضَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ».

قال قتادة: قال الحسن: «ذُكِرَ لنا أنه لما أتاه الموت نأى بصدره»[(١)].

فهذا الحديث يدلنا على سعة رحمة الله ﷻ، وإن كان هذا في بني إسرائيل جائزًا، ففي هذه الأمة المرحومة التي رفعت عنها الأغلال والآصار أجوز وأجوز، وهو يفتح باب الأمل لكل من أسرف على نفسه في المعاصي، فعليه أن يقصد باب التوبة، وأن يصدق في طلبها، فهذا الرجل كان صادقًا في طلب التوبة، وسؤال أهل العلم عنها، وهل بقي أمامه الباب مفتوحًا أو أنه أغلق بسبب كثرة جناياته، ولما دلّه العالم على ترك الأرض الخبيثة التي تعينه على المعاصي، وطلب الأرض الصالحة التي تساعده على تقوى الله ﷻ، والتي يستقبل فيها حياة جديدة خالية من معصية الله ﷻ، قصد هذه الأرض الطيبة.

فالذي ينبغي على قاصد التوبة أن يأخذ بأسبابها، ويصدق في طلبها «**ومن يتحرى الخير يُعطه، ومن يتوق الشر يوقه**»[(٢)]، ومن كان صادقًا مع الله - ﷻ - صدقه الله ﷻ، فنجا هذا الرجل بصدق التوبة، وسلوك طريقها، والأخذ بالأسباب الموصلة إليها، وإن كان لم يصل بعد إلى الأرض الطيبة التي يطيع الله ﷻ فيها، والله ﷻ قد سبقت رحمته غضبه، نسأل الله ﷻ أن يقسم لنا من أسباب رحمته ومزيد فضله.

---

(١) رواه البخاري (٦/ ٢، ٥) «أحاديث الأنبياء»، ومسلم (٧/ ٢٣٥) «التوبة».

(٢) رواه الخطيب البغدادي في تاريخه (٩/ ١٢٧)، وحسنه الألباني في «الصحيحة» رقم [٣٤٢].

٤- توبة ملكين من ملوك بني إسرائيل:

عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ اسْتَخْلَفُوا خَلِيفَةً عَلَيْهِمْ بَعْدَ مُوسَى ﷺ، فَقَامَ يُصَلِّي لَيْلَةً فَوْقَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ فِي الْقمر، فَذَكَرَ أُمُورًا كَانَ صَنَعَهَا، فَخَرَجَ فَتَدَلَّى بِسَبَبٍ[1]، فَأَصْبَحَ السَّبَبُ مُعَلَّقًا فِي الْمَسْجِدِ وَقَدْ ذَهَبَ.

قَالَ: فَانْطَلَقَ حَتَّى أَتَى قَوْمًا عَلَى شَطِّ الْبَحْرِ فَوَجَدَهُمْ يَضْرِبُونَ لَبِنًا أَوْ يَصْنَعُونَ لَبِنًا، فَسَأَلَهُمْ: كَيْفَ تَأْخُذُونَ عَلَى هَذَا اللَّبِنِ؟ قَالَ: فَأَخْبَرُوهُ، فَلَبَّنَ مَعَهُمْ، فكَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، فَإِذَا كَانَ حِينُ الصَّلاةِ قَامَ يُصَلِّي، فَرَفَعَ ذَلِكَ الْعُمَّالُ إِلَى دِهْقَانِهِمْ[2] أَنَّ فِينَا رَجُلًا يَفْعَلُ كَذَا وَكَذَا، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَأَبَى أَنْ يَأْتِيَهُ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ إِنَّهُ جَاءَهُ يَسِيرُ عَلَى دَابَّتِهِ.

فَلَمَّا رَآهُ فَرَّ، فَاتَّبَعَهُ فَسَبَقَهُ، فَقَالَ: أَنْظِرْنِي أُكَلِّمْكَ، قَالَ: فَقَامَ حَتَّى كَلَّمَهُ فَأَخْبَرَهُ خَبَرَهُ، فَلَمَّا أَخْبَرَهُ أَنَّهُ كَانَ مَلِكًا وَأَنَّهُ فَرَّ مِنْ رَهْبَةِ ربه، قَالَ: إِنِّي لأَظُنُّنِي لاحِقٌ بِكَ، قَالَ: فَاتَّبَعَهُ فَعَبَدا الله حَتَّى مَاتَا بِرُمَلَةَ مِصْرَ»، قال عبد الله: لو أني كنت ثَمَّ لاهتديت إلى قبرهما بصفة رسول الله ﷺ التي وصف لنا[3].

قال الدكتور عمر الأشقر: إن مثل هذا القرار[4] ليس سهلًا، فالقعود على كرسي الحكم وتولي قيادة الناس والإمساك بزمام الأمور، له في النفس متعةٌ كبيرةٌ، فالملك أو الحاكم تنقاد له الدنيا، ويتصرف في أمور العباد، ويطيعه قومه، ويتقلب في النعيم، ويتصرف في الأموال العظيمة، ولذا فلا يمكن لمثل هذا الرجل أن يترك الحكم إن لم

---

(١) أي: بحبل.

(٢) في بعض الروايات أن الذي طلبه هو الملك، وعلى كل حال فالدهقان هو رئيس القرية.

(٣) رواه أحمد (١/ ٤٥١)، وأبو يعلي (٩/ ٢٦١)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢١٩): رواه البزار والطبراني في «الأوسط» و«الكبير»، وقال: إسناده حسن، وصححه الألباني في «الصحيحة».

(٤) أي: ترك الملك، والفرار لعبادة الله عز وجل.

يكن الدافع الذي يجده في نفسه عظيماً بحيث يفوق الدافع الذي يجده الملوك في أنفسهم للتمسك بالحكم، لقد امتلأ قلب هذا الرجل من مخافة الله، وخشي إن هو استمر في تولي الملك أن يوبقه عمله، ويغضب ربه عليه، فسهل عليه ترك الملك والتولي عنه[١].

فهذا موقف إيماني في صدق التوبة إلى الله ﷻ، فقد يكون العبد في عمل أو في مكان لا يستطيع معه أن يتوب إلى الله أو يعمل بطاعته، فتوبته تستلزم فراره من منصبه أو مكانه، فإذا كان صادقًا في طلب التوبة فإنه يضحي بالمناصب الدنيوية، وبجاهه وسلطانه وأرضه ومصالحه الدنيوية حتى تصح توبته، وتصلح آخرته، والله الموفق للخيرات.

٥- توبة أبي خيثمة رضي الله عنه:

قال ابن إسحاق: تخلف أبو خيثمة أحد بني سالم عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، حتى إذا سار رسول الله ﷺ رجع أبو خيثمة ذات يوم إلى أهله، في يوم حار، فوجد امرأتين له في عريشين له في حائط لهما قد رَشّت كل واحدة منهما عريشها، وبَرَّدت له فيه ماءً، وهيأت له طعامًا، فلما دخل قام على باب العريش ينظر، ثم قال: رسول الله ﷺ في الضَّح والريح والحر - يعني بالضح: الشمس - وأبو خيثمة في ظلٍ وماءٍ بارد وطعام مهيأ وامرأة حسناء ما هذا بالنصفِ، والله لا أدخل عريش واحدةٍ منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ فَهَيَّئا لي زادًا، ففعلتا، ثم قَدَّم ناضحه[٢] فارتحله ثم خرج في طلب رسول الله ﷺ فأدركه حين نزل تبوك.

قال: وقد كان أدرك أبا خيثمة عمير بن وهب الجُمَحي في الطريق يطلب رسول الله ﷺ، فترافقا حتى إذا دنوا من تبوك قال أبو خيثمة لعمير بن وهب: إن لي ذنبًا فلا عليك أن تَخَلَّفَ عنِّي حتى آتي رسول الله ﷺ، ففعل، ثم سار حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ، وهو بتبوك، فلما طلع قال الناس: هذا راكب مقبل، فقال رسول الله ﷺ: «**كن أبا خيثمة**» فلما دنا قال الناس: يا رسول الله، هذا والله

(١) «صحيح القصص النبوي» (٢٩٨-٢٩٩).
(٢) أي: بعيره.

أبو خيثمة، فلما أناخ سلم على رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «**أولى لك أبا خيثمة**» ثم أخبره الخبر فقال له: خيرًا ودعا له[١].

٦- توبة الثلاثة الذي خُلِّفوا:

قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُواْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة:١١٨].

والثلاثة هم: كعب بن مالك، وهِلال بن أمية الواقفي، ومرارة بن الربيع العمري، وكعب بن مالك عقبي ممن شهد بيعة العقبة الثانية، ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية بدريان، وكان من خبر الثلاثة رضي الله عنهم أنهم تخلفوا عن رسول الله ﷺ، ولم يخرجوا معه إلى غزوة تبوك بغير عذر، وقد تخلف عنه جماعة من المنافقين، فلما عاد النبي ﷺ إلى المدينة أقبل المنافقون يعتذرون إلى رسول الله ﷺ، والنبي ﷺ يقبل منهم علانيتهم، ويكل سرائرهم إلى الله ﷻ.

ثم أتى الثلاثة فصدقوا مع الله – ﷻ – ومع رسوله ﷺ، واعترفوا بأنهم لم يكن لهم أعذار تدعوهم إلى التخلف، ففوض النبي ﷺ أمرهم إلى الله ﷻ، وأمر الصحابة رضي الله عنهم بمقاطعتهم تأديبًا لهم عن التخلف عن رسول الله ﷺ بغير عذر، فلما مضى عليهم أربعون ليلة أمرهم بمفارقة زوجاتهم، والصحابة الكرام يلتزمون أمر رسول الله ﷺ.

قال كعب بن مالك: فأما صَاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم، فكنت أخرج أشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف في الأسواق، ولا يكلمني أحدٌ، وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حَرَّك شفتيه برد السلام عَلَيَّ أم لا، ثم أصلي قريبًا منه

---

(١) «سيرة ابن هشام مع الروض الأنف» (٤/ ١٧٥-١٧٦)، «التوابين» لابن قدامة [٦٤] ط. مكتبة فياض.

فأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إليّ، وإذا التفت نحوه أعرض عنّي، حتى إذا طال عليَّ ذلك من جفوة الناس، مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة - وهو ابن عمي وأحب الناس إلَيَّ - فسلمت عليه، فوالله ما رد عَلَيَّ السلام.

فقلت: يا أبا قتادة! أنشدك بالله هل تعلمني أحب الله ورسوله؟ فسكت، فعدت له فنشدته فسكت، فعدت له فنشدته، فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناي، وتوليت حتى تسورت الجدار.

قال: فبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطي من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك، فطفق الناس يشيرون له، حتى إذا جاءني دفع إِليَّ كتابًا من ملك غسان، فإذا فيه: «أما بعد، قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فَالْحَقْ بنا نواسِك، فقلت لما قرأتها: وهذا أيضًا من البلاء، فتيممت بها التنور فسجرته بها، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول رسول الله ﷺ يأتيني فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا، بل اعتزلها ولا تقربها، وأرسل إلى صاحِبَيّ مثل ذلك، فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك فتكوني عندهم حتى يقضي الله هذا الأمر.

قال كعب: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: «**لا، ولكن لا يقربك**»، قال: إنه والله ما به حركة إلى شيء، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره إلى يومه هذا، فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه، فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ، وما يدريني ما يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها، وأنا رجلٌ شابٌّ، فلبثت بعد ذلك عشر ليال حتى كملت لنا خمسون ليلة، من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا، فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة، وأنا على ظهر بيت، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى قد ضاقت عَلَيَّ نفسي، وضاقت عَلَيَّ الأرض بما رحبت،

سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سَلع بأعلى صوته: يا كعب بن مالك! أبشر، قال: فخررت ساجدًا، وعرفت أن قد جاء فرجٌ، وآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب قِبلَ صاحبي مبشرون، وركض إلي رجلٌ فرسًا، وسعى ساع من أسلم فأوفى على الجبل، وكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبيّ فكسوته إياهما ببشراه، والله ما أملك غيرهما يومئذٍ، واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت إلى رسول الله ﷺ، فيتلقاني الناس فوجًا فوجًا يهنوني بالتوبة، يقولون: لتهنك توبة الله عليك.

قال كعب: حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس، فقام إليَّ طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهناني، والله ما قام إليَّ من المهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحة.

قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ وهو يبرق وجهه من السرور: «**أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك**»، قال: قلت: أَمن عندك يا رسول الله؟ قال: «**بل من عند الله**»، وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه، فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله، قال رسول الله ﷺ: «**أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك**» قلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر.

فقلت: يا رسول الله، إن الله إنما نجاني بالصدق، وإن من توبتي ألا أُحَدِّث إلا صدقًا ما بقيت، فوالله ما أعلم أحدًا من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني، ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذبًا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت، وأنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ ...﴾ إلى قوله: ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٧-١١٩].

فوالله ما أنعم الله عَلَيَّ من نعمة قط - بعد أن هداني للإسلام - أعظم في نفسي من صدقي لرسول الله ﷺ، ألا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا، فإن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد، فقال تبارك وتعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ ...﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٥-٩٦].

قال كعب: وكنا تخلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا فبايعهم، واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله - ﷻ - فيه بذلك، قال الله: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ [التوبة: ١١٨].

وليس الذي ذكر الله مما خلفنا عن الغزو، إنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له، واعتذر إليه، فقبل منه(١).

فبلغ من صدق هؤلاء الثلاثة أن نزلت توبتهم من السماء، وصار خبرهم قرآنًا يتلى في صدق التوبة، وفي القصة بيان حال المؤمن إذا وقع في معصية الله - ﷻ - كيف تضيق عليه الأرض بما رحبت، وتضيق عليه نفسه، وفي القصة بيان أن خير يوم يمر على المؤمن منذ ولدته أمه يوم توبته، لأنه بداية الخير له في الدنيا والآخرة، فبالتوبة ينفسح صدره، ويفسح له في قبره، ويفوز بجنة ربه، نسأل الله ﷻ التوبة والإنابة والقبول والإثابة.

٧- توبة أبي لبابة بن عبد المنذر رضي الله عنه:

لما أجلى الله - ﷻ - الأحزاب عن مدينة رسول الله ﷺ، ونزل جبريل عليه السلام على رسولنا ﷺ فقال: قد وضعت السلاح، والله ما وضعناه، فاخرج إليهم، قال: «**فإلى أين؟**» قال: ها هنا، وأشار إلى قريظة، فخرج النبي ﷺ إليهم... وحاصرهم رسول الله ﷺ خمسًا وعشرين ليلة، حتى جهدهم الحصار، وقذف الله في قلوبهم الرعب.

قال ابن إسحاق: ثم إنهم بعثوا إلى رسول الله ﷺ أن ابعث إلينا أبا لبابة ابن عبد المنذر أخا بني عمرو بن عوف - وكانوا حلفاء الأوس - لنستشيره في أمرنا،

---

(١) رواه البخاري (٧/ ٧١٧-٧١٩) المغازي، ومسلم (١٧/ ٨٧-٩٨) الذكر والدعاء، والتوبة والاستغفار.

فأرسله رسول الله ﷺ إليهم، فلما رآه قام إليه الرجال وجهش إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه، فَرَقَّ لهم، وقالوا له: يا أبا لُبابة! أترى أن ننزل على حكم محمد ﷺ ؟ قال: نعم، وأشار بيده إلى حلقه، إنه الذبح، قال أبو لبابة: فوالله ما زلت قدماي من مكانهما حتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله ﷺ ، ثم انطلق أبو لبابة على وجهه، ولم يأت رسول الله ﷺ حتى ارتبط في المسجد إلى عمود من عمده.

وقال : لا أبرح مكاني حتى يتوب الله عليَّ مما صنعت، وعاهدت الله: ألا أطأ بني قريظة أبدًا، ولا أرى في بلدٍ خنت الله ورسوله فيه أبدًا.

قال ابن هشام: وأنزل الله في أبي لبابة فيما قال سفيان بن عيينة عن إسماعيل بن أبي خالد عن عبد الله بن أبي قتادة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٧].

قال ابن إسحاق: فلما بلغ رسول الله ﷺ خبره - وكان قد استبطأه - قال: «**أما إنه لو جاءني لاستغفرت له، فأما إذ قد فعل فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه**».

قال ابن إسحاق: فحدثني يزيد بن عبد الله بن قسيط أن توبة أبي لبابة نزلت على رسول الله ﷺ من السحر، وهو في بيت أم سلمة، فقالت أم سلمة: فسمعت رسول الله ﷺ من السحر وهو يضحك، قال: فقلت: مم تضحك يا رسول الله أضحك الله سِنَّك؟ قال: «**تيب على أبي لبابة**» قالت: قلت: أفلا أبشره يا رسول الله؟ قال: «**بلى، إن شئت**» قال: فقامت على باب حجرتها وذلك قبل أن يضرب عليهن الحجاب فقالت: يا أبا لبابة! أبشر فقد تاب الله عليك، قالت: فثار إليه الناس ليطلقوه، فقال: لا والله حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يطلقني بيده، فلما مَرَّ عليه رسول الله ﷺ خارجًا إلى صلاة الصبح أطلقه.

قال ابن هشام: أقام أبو لبابة مرتبطًا بالجذع سِتَّ ليالٍ تأتيه امرأته في كل وقت صلاة فتحله للصلاة، ثم يعود فيرتبط بالجذع فيما حدثني بعض أهل العلم، والآية التي نزلت في توبته قول الله ﷻ: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٠٢](١).

المؤمنون إذا وقعوا في معصية الله ﷻ، تذكروا عظمة الله وتوعده وعقابه، فأسرعوا بالتوبة إلى الله ﷻ والإنابة إليه، وأما إخوان الشياطين فيتبعون الذنب الذنب، ولا يتوبون، ولا يرجعون إلى الله ﷻ، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١-٢٠٢].

فانظر رحمك الله كيف سارع أبو لبابة إلى ربط نفسه في ساريةٍ من سواري المسجد، حتى يعلم بتوبة الله – ﷻ – عليه، فرضي الله عن الصحابة الكرام الذين سبقوا إلى كل خير، وتسابقوا في كل بر، حتى في المسارعة إلى التوبة، وهذا شاهد صدقهم ويقينهم، ومحبتهم لربهم ﷻ ولرسوله ﷺ.

٨- توبة ماعز والغامدية رضي الله عنهما:

عن سليمان عن بريدة عن أبيه قال: جاء ماعز بن مالك إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله طهرني، فقال: «**ويحك! ارجع فاستغفر الله وتب إليه**» قال: فرجع غير بعيد، ثم جاء فقال: يا رسول الله! طهرني، فقال رسول الله ﷺ: «**ويحك ارجع فاستغفر الله وتُب إليه**» قال: فرجع غير بعيد ثم جاء فقال: يا رسول الله! طهرني، فقال النبي ﷺ مثل ذلك.

حتى إذا كانت الرابعة قال له رسول الله ﷺ: «**فِيمَ أطهرك؟**»، فقال: من الزنا، فسأل رسول الله ﷺ: «**أَبِه جنون؟**» فأُخْبر أنه ليس بمجنون،

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام مع «الروض الأنف» (٣/ ٦٨) ط. مؤسسة مختار ومكتبة الكليات الأزهرية.

فقال: «**أشرب خمرًا؟**» فقام رجل فاستنكهه فلم يجد منه ريح خمر، قال: فقال رسول الله ﷺ: «**أزنيت؟**» فقال: نعم، فأمر به فرجم، فكان الناس فيه فِرقتين: قائل يقول: لقد هلك، لقد أحاطت به خطيئته، وقائل يقول: ما توبة أفضل من توبة ماعز، أنه جاء إلى النبي ﷺ فوضع يده في يده ثم قال: اقتلني بالحجارة، قال: فلبثوا بذلك يومين أو ثلاثة، ثم جاء رسول الله ﷺ وهم جلوس فَسلَّم ثم جلس، فقال: «**استغفروا لماعز بن مالك**» قال: فقالوا: غفر الله لماعز بن مالك، قال: فقال رسول الله ﷺ: «**لقد تاب توبة لو قُسِمَتْ بين أمة لوسعتهم**».

قال: ثم جاءته امرأة من غامد من الأزد قالت: يا رسول الله! طهرني: فقال: «**ويحك ارجعي فاستغفري الله وتوبي إليه**»، فقالت: أراك تريد أن تردني كما رددت ماعز بن مالك، قال: «**وما ذَاكَ؟**» قالت: إنها حُبْلى من الزنا، فقال: «**آنتِ؟**» قالت: نعم، فقال لها: «**حتى تضعي ما في بطنك**».

قال: فكفلها رجل من الأنصار حتى وضعت، قال: فأتى النبي ﷺ فقال: قد وضعت الغامدية، فقال: «**إذًا لا نرجمها وندع ولدها صغيرًا ليس له من يرضعه**»، فقام رجل من الأنصار: إليّ رضاعه يا نبي الله! قال: فرجمها[1].

وفي رواية: «... فلما ولدت أتته بالصبي في خِرقة، قالت: هذا قد ولدته، قال: «**اذهبي فأرضعيه حتى تفطميه**» فلما فطمته أتته بالصبي في يده كِسْرةُ خبزٍ، فقالت: هذا يا نبي الله قد فطمته، وقد أكل الطعام، فدفع الصبي إلى رجلٍ من المسلمين، ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها، وأمر الناس فرجموها، فيقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فَتَنضَّح الدَّمُ على وجه خالدٍ، فسَبَّها، فسمع نبي الله ﷺ سَبهُ إياها، فقال: «**مهلًا يا خالد، فوالذي نفسي بيده! لقد تابت توبة لو تابها صاحب مَكْسٍ لغفر له**»، ثم أمر بها فَصلى عليها ودفنت[2].

(١) رواه مسلم (١١/ ٢٨٤-٢٨٨) الحدود.

(٢) رواها مسلم (١١/ ٢٨٩-٢٩٠) الحدود.

obeikandl.com

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: هذا دليل على أن الحد يكفر ذنب المعصية التي حُدَّ لها، وقد جاء ذلك صريحًا في حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو قوله: «**من فعل شيئًا من ذلك فعوقب به في الدنيا فهو كفارته**»(١).

ولا نعلم في هذا خلافًا، وفي هذا الحديث دليل على سقوط إثم المعاصي الكبائر بالتوبة، وهي بإجماع المسلمين، إلا ما قدمناه عن ابن عباس في توبة القاتل خاصة، والله أعلم، فإن قيل: فما بال ماعز والغامدية لم يقنعا بالتوبة وهي محصلة لغرضهما، وهو سقوط الإثم، بل أصرا على الإقرار، واختارا الرجم؟ فالجواب: أن تحصيل البراءة بالحدود وسقوط الإثم متعين على كل حال، لاسيما وإقامة الحد بأمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأما التوبة فيخاف ألا تكون نصوحًا، وأن يخل بشيء من شروطها، فتبقى المعصية وإثمها دائمًا عليه، فأرادا حصول البراءة بطريق متيقن دون ما يتطرق إليه احتمال، والله أعلم(٢).

فالحدود كفارات كما أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والله عَزَّ وَجَلَّ أرحم من أن يثنِّي على العبد العقوبة على نفس الذنب في الآخرة، ولئن وقع ماعز والغامدية في كبيرة الزنا فقد وفِّقا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لهذه التوبة التي مدحها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وشهد بصدقها، وطلب من الصحابة أن يستغفروا لماعز، وصلى بنفسه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الغامدية، فكان هذا الذنب كأنه لم يكن، وبقي لهما شرف الصحبة، وثناء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على توبتهما، وأعمالهما الصالحة.

فغفر الله عَزَّ وَجَلَّ لماعز والغامدية، وجزاهما الله خيرًا على صدق التوبة، والإنابة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ.

٩- توبة زاذان الكندي:

قال ابن قدامة: وَرُوِيَ عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه مَرَّ ذات يوم في موضع من نواحي الكوفة فإذا فتيان فساق قد اجتمعوا يشربون، وفيهم مُغَنٍ يقال له: زاذان يضرب ويغني، وكان له صوت حسن.

---

(١) رواه البخاري (١٦٤) الإيمان.

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١١/ ٢٨٥ هامش).

فلما سمع ذلك عبد الله قال: ما أحسن هذا الصوت لو كان بقراءة كتاب الله، وجعل الرداء على رأسه ومضى، فسمع زاذان قوله، فقال: من كان هذا؟ قالوا: عبد الله ابن مسعود صاحب رسول الله ﷺ، قال: وأي شيء قال؟ قالوا: إنه قال: ما أحسن هذا الصوت لو كان بقراءة كتاب الله تعالى.

فقام وضرب بالعود على الأرض فكسره، ثم أسرع فأدركه، وجعل المنديل في عنق نفسه، وجعل يبكي بين يدي عبد الله بن مسعود، فاعتنقه عبد الله بن مسعود وجعل يبكي كل واحدٍ منهما، ثم قال عبد الله: كيف لا أحب من قد أحبه الله ﷻ، فتاب إلى الله – ﷻ – من ذنوبه، ولازم عبد الله بن مسعود، وأخذ حظًا من العلم، حتى صار إمامًا في العلم وروى عن عبد الله بن مسعود وسلمان وغيرهما[١].

١٠- توبة القعنبي «عبد الله بن مسلمة بن قعنب الحارثي»:

حدث بعض ولد القعنبي بالبصرة قال: كان أبي يشرب النبيذ، ويصحب الأحداث، فدعاهم يومًا وقد قعد على الباب ينتظرهم، فمر شعبة على حماره والناس خلفه يهرعون، فقال: من هذا؟ قيل: شعبة، قال: وإيش شعبة؟ قالوا: مُحَدِّث.

فقام إليه وعليه إزار أحمر، فقال له: حدثني، فقال: ما أنت من أصحاب الحديث فأحدثك، فأشهر سكينه وقال: تحدثني أو أجرحك، فقال له: حدثنا منصور عن رِبعي عن أبي مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ**»[٢].

فرمى سكينه ورجع إلى منزله، فقام إلى جميع ما كان عنده من الشراب فهراقه، وقال لأُمِّهِ: الساعة أصحابي يجيئون، فأدخليهم وقدمي الطعام إليهم، فإذا أكلوا فخبريهم بما صنعت بالشراب حتى ينصرفوا، ومضى من وقته إلى المدينة، فلزم مالك بن أنس فأثر عنه، ثم رجع إلى البصرة وقد مات شعبة، فما سمع منه غير هذا الحديث[٣].

(١) «كتاب التوابين» للإمام موفق الدين ابن قدامة المقدسي، تحقيق محمود عبد الملك الزغبي [١٣١] ط. دار المنار، ومكتبة فياض.

(٢) رواه البخاري (١٠/ ٥٤٠) الأدب، وأبو داود [٤٧٧٦ عون] الأدب، وابن ماجه [٤١٨٣] عن أبي مسعود الأنصاري.

(٣) «التوابين» (١٤٢، ١٤٣).

وقوله ﷺ: «**إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ**» هو أمر بمعنى الخبر، أو هو للتهديد أي اصنع ما شئت فإن الله يجزيك، أو معناه: انظر ما تريد أن تفعله فإن كان مما لا يستحي منه فافعله، وإن كان مما يُستحى منه فدعه، أو المعنى: إنك إذا لم تستح من الله من شيءٍ يجب أن تستحي منه من أمر الدين فافعله ولا تبال بالخلق، أو المراد الحث على الحياء والتنويه بفضله، أي: لما لم يجز صنع جميع ما شئت لم يجز ترك الاستحياء، أفاده الحافظ.

١١- توبة السيدة سهير عابدين (هالة الصافي سابقًا):

تقول السيدة سهير عابدين (المعروفة بهالة الصافي الراقصة المشهورة سابقًا): في إحدى الأيام كنت أؤدي رقصة في أحد فنادق القاهرة المشهورة، شعرت وأنا أرقص بأنني عبارة عن جثة، دمية تتحرك بلا معنى، ولأول مرة أشعر بالخجل وأنا شبه عارية أرقص أمام الرجال، ووسط الكؤوس.

تركت المكان، وأسرعت وأنا أبكي في هستيريا حتى وصلت إلى حجرتي، وارتديت ملابسي، وانتابني شعور لم أحسه طيلة حياتي مع الرقص الذي بدأته منذ كان عمري خمس عشرة سنة، فأسرعت لأتوضأ، وصليت، وساعتها شعرت لأول مرة بالسعادة والأمان، ومن يومها ارتديت الحجاب على الرغم من كثرة العروض وسخرية البعض.

أديت فريضة الحج ووقفت أبكي لعل الله يغفر لي الأيام السوداء...

وتختم قصتها قائلة: «هالة الصافي ماتت ودُفِنَ معها ماضيها، أما أنا فاسمي سهير عابدين - أم كريم - ربة بيت، أعيش مع ابني وزوجي، ترافقني دموع الندم على أيام قضيتها من عمري بعيدًا عن خالقي الذي أعطاني كل شيء، إنني الآن مولودة جديدة، أشعر بالراحة والأمان، بعد أن كان القلق والحزن صديقي بالرغم من الثراء والسهر واللهو».

وتضيف: «قضيت كل السنين الماضية صديقة للشيطان، لا أعرف سوى اللهو والرقص، كنت أعيش حياة كريهة حقيرة، كنت دائمًا عصبية، والآن أشعر أنني مولودة جديدة، أشعر أنني في يد أمينة، تحنو عَليّ وتباركني يد الله سبحانه وتعالى!»[1].

(١) «العائدون إلى الله» لمحمد بن عبد العزيز المسند [٧٧]، ط. مكتبة السنة.

هذا موقف من مواقف الإيمان في صدق التوبة إلى الله ﷻ، يظهر فيه بجلاء لطف الله - ﷻ - بعباده، وهم أبعد ما يكونون عن الله ﷻ وعن رحمته وهدايته، والله - ﷻ - يهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيم، ولكنه - ﷻ - يهدي من يستحق الهداية، ويضل من يستحق الضلال، وقد قال النبي ﷺ: «**وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها**»(١).

فالعبد قد يعمل بعمل أهل النار زمانًا، وفي قلبه خصلة من خصال الخير، تظهر هذه الخصلة في آخر عمره، ويصبغ بها عمله، وتكون بابًا إلى رحمة الله ﷻ وجنته.

وليست هذه السيدة الفاضلة أول من يتشرف بالإسلام والالتزام من الذين وقعوا في الأجواء الفنية العَفِنة التي تفج وتعج بالرذائل والمنكرات، بل سبقها كثير، وتبعها كثير، تداركتهم رحمة الله، ووَفقوا إلى التوبة النصوح، وعرفوا أن الحياة الحقيقية والسعادة الحَقَّةَ في التزام شرع الله ﷻ، وسلوك سبيل الطاعة الموصل إلى جنة الله ﷻ، فليست السعادة في الشهوات، ولا في المال والجاه، السعادة الحقيقية في أن تعرف الله ﷻ، ويتعلق قلبك بالله، وتشغل القلب والجوارح بطاعته، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ [الرَّعۡد: ٢٨]، فنسأل الله - ﷻ - أن يثبتنا وجميع المؤمنين والمؤمنات على طاعته، وأن يزيدنا من فضله، وأن يفتح علينا من لذيذ مناجاته، والأنس به، والسعادة بقربه وطاعته، ما تقرُّ به أعيننا، وتطمئن به قلوبنا.

١٢- توبة شاب كان يتعرض للنساء:

قال بعض الغيورين على دينهم: خرجت ذات يوم بسيارتي لقضاء بعض الأعمال، وفي بعض الطرق الفرعية الهادئة قابلني شاب يركب سيارة صغيرة، لم يرني؛ لأنه كان مشغولًا بملاحقة بعض الفتيات في تلك الطريق الخالية من المارة.

---

(١) سبق تخريجه.

كنت مسرعًا فتجاوزته، فلما سِرتُ غير بعيد قلت في نفسي: أأعود فأنصح ذلك الشاب، أم أمضي في طريقي وأدعه يفعل ما يشاء؟

وبعد صراع داخلي دام عدة ثوانٍ فقط اخترت الأمر الأول.

عُدت ثانية فإذا به قد أوقف سيارته وهو ينظر إليهن، ينتظر منهن نظرة أو التفاتة، فدخلن في أحد البيوت.

أوقفت سيارتي بجوار سيارته، ونزلت من سيارتي، واتجهت إليه، سلمت عليه أولًا ثم نصحته، فكان مما قلته له: تخيل أن هؤلاء الفتيات أخواتك، أو بناتك، أو قريباتك، فهل ترضى لأحدٍ من الناس أن يلاحقهن أو يؤذيهن؟

كنت أتحدث إليه وأنا أشعر بشيءٍ من الخوف، فقد كان شابًا ضخمًا ممتلئ الجسم، كان يستمع إلي وهو مطرق الرأس، لا ينبس ببنت شِفةٍ.

وفجأة! التفت إليّ فإذا دمعة قد سالت على خده، فاستبشرت خيرًا، وكان ذلك دافعًا لي لمواصلة النصيحة، لقد زال الخوف مني تمامًا، وشددت عليه في الحديث، حتى رأيت أني قد أبلغت في النصيحة.

ثم ودّعته، لكنه استوقفني، وطلب مني أن أكتب له رقم هاتفي، وعنواني، وأخبرني أنه يعيش فراغًا نفسيًا قاتلًا، فكتبت له ما أراد، وبعد أيام جاءني في البيت، لقد تغير وجهه، وتبدلت ملامحه، فقد أطلق لحيته، وشَعَّ نور الإيمان من وجهه.

جلست معه، فجعل يحدثني عن تلك الأيام التي قضاها في «التسكع» في الشوارع والطرقات وإيذاء المسلمين والمسلمات، فأخذت أُسَليه، وأخبرته بأن الله سبحانه واسع المغفرة، وتلوت عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣] فانفرجت أسارير وجهه، واستبشر خيرًا، ثم ودَّعني وطلب مني أن أَرُد الزيارة، فهو في حاجة إلى من يعينه على السير في الطريق المستقيم، فوعدته بالزيارة.

ومضت الأيام، وشغلت ببعض مشاغل الحياة الكثيرة، وجعلت أسوّف في زيارته.

وبعد عدة أيام وجدت فرصة وذهبت إليه.

طرقت الباب فإذا بشيخ كبير يفتح الباب وقد ظهرت عليه آثار الحزن والأسى، إنه والده.

سألته عن صاحبي... أطرق برأسه إلى الأرض، وَصَمَتَ بُرهة، ثم قال بصوت خافت: يرحمه الله ويغفر له، ثم استطرد قائلًا: حقًا إن الأعمال بالخواتيم، ثم أخذ يحدثني عن حاله، وكيف أنه كان مفرطًا في جنب الله، بعيدًا عن طاعة الله، فمن الله عليه بالهداية قبل موته بأيام، لقد تداركه الله برحمته قبل فوات الأوان، فلما فرغ من حديثه عزيته ومضيت، وقد عاهدت الله أن أبذل النصيحة لكل مسلم(١).

ويظهر في هذه القصة بركة النصيحة إذا صدرت من الداعي المخلص الحريص على هداية الناس، وكيف أنها كلمات قليلة، لم تكلف الداعي كثير مشقة، ومع ذلك كانت سببًا لهداية هذا الشاب في آخر عمره، حتى خُتِم له بخير.

ويظهر فيها أيضًا كيف أن البعيد عن طاعة الله وشرعه، كيف تكون حاله من الضَّنك والشقاء، والخواء، إنهم كالغرقى الذين يمدون أيديهم لكل من يحسن السباحة حتى ينقذهم من بحار الضلال والشهوات والشبهات، أو كالمرضى الذين هم في أشد الحاجة إلى إشارة الطبيب الخبير بالمرض العليم بالعلاج، فما أشد حاجة العصاة إلى نصح الناصحين، ووعظ الواعظين، لا أقول: كلهم يهتدون ويتوبون، وإن كان الله - ﷻ - قادرًا على هداية جميعهم كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يُونُس:٩٩]، ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السَّجْدَة:١٣]، ولكن من فيه خير وبقية صلاح، سوف يهتدي فينال أجر الهداية، وينال من دعاه أجر إرشاده ونصحه، وقد قال النبي ﷺ: «**لئن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لَك من حُمْر النَّعم**»(٢).

(١) «العائدون إلى الله» (١٠٥-١٠٦).

(٢) رواه البخاري (٧/ ٨٧) المغازي، ومسلم [٢٤٠٦] فضائل الصحابة، وحمر النعم: هي الإبل

والمواقف الإيمانية في صدق التوبة هي أن يصدق العبد مع نفسه، وأن يصدق مع ربه، ثم يستقيم على طريق الله، كما قال النبي ﷺ: «**قُلْ آمَنْتُ بِالله ثُمَّ اسْتَقِمْ**»(١).

١٣- توبة شاب من المجون بعد هلاك صديقه:

يقول صاحب القصة: كُنا ثلاثة من الأصدقاء، يجمع بيننا الطيش والعبث، كلَّا، بل أربعة فقد كان الشيطان رابعًا، فكنا نذهب لاصطياد الفتيات الساذجات بالكلام المعسول، ونستدرجهن إلى المزارع البعيدة، وهناك نفاجأ بأننا قد تحولنا إلى ذئاب لا ترحم توسلاتهن، بعد أن ماتت قلوبنا، ومات فينا الإحساس.

هكذا كانت أيامنا ولياليا في المزارع... في المخيمات والسيارات، وعلى الشاطئ، إلى أن جاء اليوم الذي لا أنساه، وذهبنا كالمعتاد للمزرعة، كان كل شيءٍ جاهزًا، الفريسة لكل واحدٍ مِنَّا... الشراب الملعون... شيءٌ واحدة نسيناه هو الطعام، وبعد قليل ذهب أحدنا لشراء طعام العشاء بسيارته، كانت الساعة السادسة تقريبًا عندما انطلق... ومرت الساعات دون أن يعود، وفي العاشرة شعرت بالقلق، فانطلقت بسيارتي أبحث عنه، وفي الطريق شاهدت بعض ألسنة النار تندلع على جانبي الطريق.

وعندما وصلت فوجئت بأنها سيارة صديقي، والنار تلتهمها وهي مقلوبة على أحد جانبيها... أسرعت كالمجنون أحاول إخراجه من السيارة المشتعلة، وذهبت عندما وجدت نصف جسده قد تفحَّم تمامًا، ولكن كان ما يزال على قيد الحياة، فنقلته إلى الأرض، وبعد دقيقة فتح عينه وأخذ يهذي: النار.... النار، فقررت أن أحمله بسيارتي، وأُسرع به إلى المستشفى، ولكنه قال بصوت باكٍ: لا فائدة لن أصل، فخنقتني الدموع، وأنا أرى صديقي يموت أمامي... وفوجئت به يصرخ: ماذا أقول له؟ نظرت إليه بدهشة وسألته: من هو؟ قال بصوت كأنه قادم من بئر عميق: الله..

الحمر وهي أنفس أموال العرب، شرح النووي (هامش ١٥/ ٢٥٤) صحيح مسلم.

(١) رواه مسلم [٣٨] الإيمان، وأحمد (٣/ ٤١٣)، والترمذي [٢٤١٠] الزهد، بلفظ: «قل: ربي الله ثم استقم».

أحسست بالرعب يجتاح جسدي ومشاعري، وفجأة أطلق صديقي صرخة مدوية، ولفظ آخر أنفاسه.

ومضت الأيام... لكن صورة صديقي الراحل... وهو يصرخ والنار تلتهمه... ماذا أقول له؟.. ماذا أقول له؟..

ووجدت نفسي أتساءل: وأنا... ماذا أقول له؟ فاضت عيناي واعترتني رعشة غريبة... وفي نفس الوقت سمعت المؤذن ينادي لصلاة الفجر: الله أكبر، فأحسست أنه نداء خاص بي، يدعوني لأُسدل الستار على فترة مظلمة من حياتي... يدعوني إلى طريق النور والهداية، فاغتسلت وتوضأت، وطهرت جسدي من الرذيلة التي غرقت فيها لسنوات، وأديت الصلاة، ومن يومها لم تفتني فريضة[1].

١٤- توبة شابين في المطار على يد أحد المشايخ:

لمح أحد الشيوخ شابين في العشرين من عمرهما أو تزيد قليلًا في المطار، مسافرين إلى بلد من البلاد التي يسافر إليها الشباب للمتعة المحرمة.

استوقف الشيخ الشابين بعد أن ألقى عليهما التحية، ووجه إليهما نصيحة مؤثرة وموعظة بليغة، وكان مما قاله لهما: «ما ظنكما لو حدث خلل في الطائرة ولقيتما - لا قدر الله - حتفكما وأنتما على هذه النية قد عزمتما على مبارزة الجبار - جل جلاله - فبأي وجه ستقابلان ربكما يوم القيامة؟ وذرفت عينا هذين الشابين، ورَقَّ قلبهما لموعظة الشيخ، وقاما فورًا بتمزيق تذاكر السفر، وقالا: يا شيخ، لقد كذبنا على أهلينا، وقلنا لهم: إننا ذاهبان إلى مكة أو جدة، فكيف الخلاص؟ وماذا نقول لهم؟ وكان مع الشيخ أحد طلابه: فقال: اذهبا مع أخيكما هذا وسوف يتولى إصلاح شأنكما.

ومضى الشابان مع صاحبهما، وقد عزما على أن يبيتا عنده أسبوعًا كاملًا، ومن ثم يعودا إلى أهلهما.

---

(١) كتاب «للشباب فقط» لعادل بن محمد العيد نقلًا عن رسالة «أخي الشاب إلى أين تسير» (١٠-١٢) لمحمد أمين مرزا عالم ط. الدعوة السلفية، جامعة الإسكندرية.

وفي تلك الليلة وفي بيت ذلك الشاب - تلميذ الشيخ -، ألقى أحد الدعاة كلمةً مؤثرة زادت من حماسهما، وبعدها عزم الشابان على الذهاب إلى مكة لأداء العمرة، وهكذا أرادا شيئًا وأراد الله شيئًا آخر، فكان ما أراده الله ﷻ.

وفي الصباح، وبعد أن أَدَّى الجميع صلاة الفجر، انطلق الثلاثة صوب مكة - شرفها الله - بعد أن أحرموا.

وفي الطريق... كانت النهاية... وفي الطريق كانت الخاتمة... وفي الطريق كان الانتقال إلى الدار الآخرة[1].

فقد وقع لهم حادث مروع ذهبوا جميعًا ضحيته، فاختلطت دماؤهم الزكية بحطام الزجاج المتناثر، ولفظوا أنفاسهم الأخيرة تحت الحطام، وهم يرددون تلك الكلمات الخالدة: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك... إلخ».

كم كان بين موتهما وبين تمزيق تذاكر سفرهما لتلك البلاد المشبوهة؟! إنها أيام، بل ساعات معدودة، ولكن الله أراد لهما الهداية والنجاة، ولله الحكمة البالغة سبحانه[2].

١٥- قصة توبة شاب عاش عشرين سنة بعيدًا عن شرع الله حتى أوشك على الانتحار ثم هداه الله - ﷻ - وله الحمد والمنة:

قال الشاب التائب ما ملخصه: مَرَّ عشرون خريفًا من عمري وأنا بظلام دامس، أتخبط خبط العشواء، لا أحس للدنيا طعمًا، المال كثير أخلائي كثير، ماذا ينقصني؟ في نفسي جوعة وفي صدري ضيق، ماذا يشبع تلك الجوعة، ومَنْ ذا يشرح هذا الضيق؟ لم تشبع نفسي قط، معازف لم تشرح صدري، على العكس تمامًا فالجوعة زادت، والضيق ازداد، بدَّلت أخلائي، سافرت وعدت، سهرت كثيرًا وشربت، لهوت كثيرًا وتعبت، والجوعة دائمًا تزداد والضيق كذلك، أحسست كأني مسجون في دنياي، وأن الأرض برحابتها ضاقت، فكرت كثيرًا وطويلًا، وأخيرًا ظهر الحلُّ.. الآن سأشعر بالراحة، هذه

(١) الصحيح: إلى البرزخ، وهو المتصل بين الدنيا والآخرة.
(٢) بتصرف واختصار من «العائدون إلى الله» (١٣٩-١٤٠).

سكيني بيدي تلمع باسمة راضية عن هذا الحل، الناس هجوع والأهل نيام.. لم يبق سوى لحظات وأعيش ساعات الراحة...

لكن وأنا في تلك اللحظات وسكيني في يدي تقترب من قلبي الميت، جاء من أقصى الصمت صوت يسعى ويقول: الله أكبر... الله أكبر..

سقطت سكيني من يدي، وتحرك قلبي الميت وكأنه كان بغيبوبة، واستيقظ بعد طول سُبات، ويح نفسي ماذا جدَّ؟ أغريبٌ هذا الصوت؟ عشرون خريفًا تسمعه، أما أحسست معناه إلا الآن! وشرعت أحقق رغبة نفسي بإجابة هذا الصوت... أخذت وَضوءًا[١] وبدأت وضوئي، أَسَلتُ الماء على وجهي المرهق... فارتاح وأراح براحته نفسي، خرجت إلى الشارع متجهًا نحو المسجد... والكون مخيف بهدوئه... لا صوت يعلو... لا ضوضاء.. دخلت المسجد مع تثويب[٢] صلاة الفجر... وقفت في الصف مع الناس... طراز من الناس لم أعهده بحياتي... وجوه بيضاء يشع منها نور، ونفوس طيبة مرتاحة.

تقدم بين الناس إمامٌ أقبل عليهم بوجهه يحثهم على تسوية الصف، وشرعت أصلي خلفه... ونفسي مرتاحة، وصدري مشروح، بدأ يقرأ آيات وأنا أنصت، في تلك اللحظات نزلت دمعة أحسست ملوحتها، وشعرت بلسعتها، أجهشت ببكاء صادق، صنع في نفسي أزيزًا كأزيز المرجل، فنزل الدمع غزيرًا، وسال على خدي، وسقى أرضًا جدباء في قلبي الميت، فأحيا بهذا الدمع - بعد كلام الله - موت فؤادي، وكان بمعية هذا الغيث صوت الرعد، رعد الرحمة، صوت نحيبي وبكائي من خشية رب الناس[٣].

يظهر في هذه القصة بجلاء شقاء البعيدين عن شرع الله ﷻ، كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤]

(١) الوَضوء: هو الماء الذي يتوضأ به، أما الوُضوء بضم الواو فهو نفس الفعل.

(٢) التثويب هو: إقامة الصلاة، وهو المقصود هنا، ويطلق التثويب كذلك على قول المؤذن: «الصلاة خير من النوم».

(٣) من رسائل الدعوة السلفية جامعة الإسكندرية «أخي الحبيب قف» (٥٦-٥٩) بتصرف واختصار.

وهذا الضنك والشقاء يزداد كلما ازداد العبد بعدًا عن الله ﷻ، ومعصية له، فيفقد العبد أسباب السعادة، فالقلب لا يسعد إلا بالله ﷻ، ولا يطمئن إلا بذكره وعبادته، كم قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ [الرَّعۡد: ٢٨]، ومن ذاق عرف، ومن عرف اغترف، فلا سعادة للقلوب إلا في معرفة علام الغيوب وغَفَّار الذنوب، وكلما تعلق القلب بالله – ﷻ – تزداد سعادة العبد، وكلما أعرض عن الله – ﷻ – يزداد شقاؤه، نسأل الله أن ينفعنا ويرفعنا بالقرآن والإيمان.

١٦- توبة شاب بعد رؤية يوم القيامة في منامه:

يقول الشاب التائب: في ليلة من الليالي ذهبت إلى فراشي كعادتي لأنام، فشعرت بمثل القلق يساورني، فاستعذت بالله من الشيطان الرجيم، ونِمتُ، فرأيت فيما يرى النائم أن شيئًا غريبًا وضخمًا قد وقع من السماء على الأرض، لم أتبين ذلك الشيء، ولا أستطيع وصفه، فهو مثل كتلة النار العظيمة رأيتها تهوي، فأيقنت بالهلاك... أصبحت أتخبط في الأرض، وأبحث عن أي مخلوق ينقذني من هذه المصيبة، قالوا: هذه بداية يوم القيامة، وأن الساعة قد وقعت، وهذه أولى علاماتها.

فزعت وتذكرت جميع ما قَدَّمت من أعمال الصالح منها والطالح، وندمت أشد الندم، قرضت أصابعي بأسناني حسرة على ما فرطت في جنب الله، قلت والخوف قد تملكني: ماذا أفعل الآن؟ وكيف أنجو؟ فسمعت مناديًا يقول: اليوم لا ينفع الندم... سوف تجازى بما عملت، أين كنت في أوقات الصلوات؟ أين كنت عندما أتتك أوامر الله؟ لِمَ لَمْ تمتثل الأوامر وتجتنب النواهي؟ كنتَ غافلًا عن ربك.. قضيت أوقاتك في اللعبِ واللهو والغناء وجئت الآن تبكي... سوف ترى عذابك.

زادت حسرتي لما سمعت المنادي يتوعدني بالعذاب... بكيت وبكيت ولكن بلا فائدة... وفي هذه اللحظة العصيبة استيقظت من نومي... تحسست نفسي فإذا أنا على فراشي.

لم أصدق أني كنت أحلم فقط حتى تأكدت من نفسي.. تنفست الصعداء، ولكن الخوف ما زال يتملكني، ففكرت وقلت: والله إن هذا إنذار من الله، ويوم الحشر لابد

منه، إذًا لماذا أعصي الله؟.. لم لا أصلي؟ لم لا أنتهي عما حرم الله؟.. أسئلة كثيرة جالت في خاطري، ولم أجد إلا إجابة واحدة: عُدْ إلى الله حتى تنجو في ذلك اليوم العظيم.

أصبح الصباح، وصليت الفجر، فوجدت حلاوة الإيمان في قلبي، وفي ضحى ذلك اليوم نزلت إلى سيارتي.. نظرت بداخلها فإذا هي مليئة بأشرطة الغناء.. أخرجتها، واكتفيت ببعض الأشرطة الإسلامية النافعة، بقيت على هذه الحال... في كل يوم أتقدم خطوة إلى طريق الهداية التي أسأل الله أن يثبتني وإياكم عليها[1].

ولاشك في أن هذا من لطف الله - ﷻ - ورحمته بعباده البعيدين عن شرعه، المفرطين في التزام أوامره، يسوقهم الله - ﷻ - إلى دينه، ويردهم إلى طاعته ردًا جميلًا، فمن الناس من يتذكر برؤيا صالحة، ومنهم من يفتح قلبه لسماع النداء الذي طالما سمعه فلم يجاوز أذنيه، ومنهم من يهلك أحد أصحابه بسبب الذنوب والمعاصي وينجو الأقرب إلى الله - ﷻ - وإلى رحمته، ولله - ﷻ - في خلقه شئون.

١٧- توبة رجل بعد موت صديقه من المخدرات:

يقول التائب: كنت أتمايل طربًا، وأترنح يَمنةً ويسرةً، وأصرخ بكل صوتي وأنا أتناول مع «الشلة» الكأس تلو الكأس، وأستمع إلى صوت «مايكل جاكسون» في ذلك المكان الموبوء، المليء بالشياطين، الذي يسمونه «الديسكو».

كل ذلك في بلد عربي... أهرب إليه كلما شجعني صديق أو رفيق، فأصرف فيه مالي وصحتي... وأبتعد عن أولادي وأهلي... وأرتكب أعمالًا عندما أتذكرها ترتعد فرائصي، ويتملكني شعور بالحزن والأسى، لكن تأثير الشيطان عَلَيَّ كان أكبر من شعوري بالندم والتعب.

استمرت هذه الحال، وانطلق بي هوى النفس إلى أبعد من ذلك البلد العربي، وأصبحت من عشاق أكثر من عاصمة أوربية، وهناك أجد الفجور بشكل مكشوف وسهل ومرن.

---

(١) «العائدون إلى الله» (١٤٢-١٤٣).

وفي يوم من أيام أواخر شهر شعبان أشار عَلَيَّ أحد الأصدقاء بأن نسافر إلى «بانكوك» وقد عرض عَلَيَّ تذكرة مجانيةً، وإقامة مجانية أيضًا، ففرحت بذلك العرض، وحزمت حقائبي وغادرنا إلى «بانكوك»، حيث عشت فيها انحلالًا لم أعشه طوال حياتي.

وفي ليلة حمراء اجتمعت أنا وصديقي في أحد أماكن الفجور، وفقدنا في تلك الليلة عقولنا، حتى خرجنا ونحن نترنح، وفي طريقنا إلى الفندق الذي نسكن فيه أصيب صديقي بحالة إعياء شديدة، ولم أكن في حالة عقلية تسمح لي بمساعدته، لكني كنت أغالب نفسي، فأوقفت سيارة أجرة حملتني إلى الفندق.

وفي الفندق... استدعي الطبيب على عجل، وأثناءها كان صديقي يتقيأ دمًا، فأفقت من حالتي الرثة، وجاء الطبيب ونقل صديقي إلى المستشفى، وبعد ثلاثة أيام من العلاج المركز عدنا إلى أهلينا وحالة صديقي الصحية تزداد سوءًا، وبعد يوم من وصولنا نقل إلى المستشفى ولم يبق على دخول رمضان غير أربعة أيام.

وفي ذات مساء ذهبت لزيارة صديقي في المستشفى، وقبل أن أصل إلى غرفته لاحظت حركة غريبة، والقسم الذي فيه صديقي «مقلوب» على رأسه.. وقفت على الباب فإذا بصراخ وعويل.

لقد مات صاحبي لتوه بعد نزيف داخلي عنيف، فبكيت، وخرجت من المستشفى، وأنا أتخيل أنني أنا ذلك الإنسان الذي ضاعت حياته وانتهت في غمضة عين، وشهقت بالبكاء وأنا أتوب إلى الله، وأنا أستقبل رمضان بالعبادة، والاعتكاف، والقيام، وقراءة القرآن، وقد خرجت من حياة الفسق والمجون، إلى حياة شعرت فيها بالأمن والأمان والاطمئنان والاستقرار، وقد كنت بعيدًا عن ذلك أستمرئ المجون والفجور، حتى قضى صاحبي نحبه أمامي.. فأسأل الله أن يتوب عَلَيَّ[1].

نعوذ بالله من سوء الخاتمة، فمن قتلته المعاصي، وختم له بعمل من أعمال أهل النار كيف يكون حاله، وقد خسر الدنيا وضاعت عليه أيام حياته، وفرصة عمره، ثم انقلب

(١) «العائدون إلى الله» (١٦٢-١٦٣).

إلى الآخرة صفر اليدين، لم يقدم لحياته الباقية الدائمة فخسر الدنيا والآخرة، نسأل الله العافية والسلامة.

١٨- توبة شاب مصري أوشك على الارتداد عن دين الإسلام، ثم تداركته رحمة الله فتاب وأناب، واستقام على طريق الله ﷻ:

يقول الشاب المصري: أنا شاب مصري من محافظة أسيوط، نشأت بين والدين مسلمين في سعادة غامرة، إلا أن سعادتي لم تدم طويلًا، إذ شاء الله أن يطلق والدي والدتي، فقررنا - أنا وإخوتي - العيش مع والدتي، مما جعل والدي يقطع عنا المصروف لنعيش في حالة لا يعلمها إلا الله من الفقر والحاجة، كنت أعمل عملًا متواصلًا لتوفير لقمة العيش لي ولإخوتي، ولما ضاقت بي الحياة في بلدتي الصغيرة قررت السفر إلى القاهرة للبحث عن عمل أفضل، فوجدت عملًا في أحد المقاهي، وهنا تبدأ القصة.

فقد تعرفت من خلال عملي هذا على أصدقاء كثيرين، من بينهم عدد من النصارى، كانوا يعاملونني معاملة خاصة، وباهتمام شديد، فكنت أقضي معهم معظم الأوقات، نضحك، ونلهو، مع جهلي الشديد بديني، حيث كنت منهمكًا في البحث عن الشهوات، وتعاطي المخدرات أحيانًا، على الرغم من حالتي الاقتصادية السيئة.

أعود إلى الحديث عن (أصدقائي) النصارى؛ فقد كانوا خمسة يعملون في مصنع للأحذية يمتلكه أحدهم، وشيئًا فشيئًا، بدأوا يحدثونني عن المسيح، ويخوضون معي في حوارات دينية.. وذات مرة دخلت عليهم في مصنعهم وهم يستمعون - من شريط مسجل - إلى ترانيم دينية لرجل نصراني، كان يرتل بعض الأناشيد عن يسوع المسيح - عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ - وأمه العذراء، فلاحظوا عَلَيَّ تأثرًا وانفعالًا... فكانوا كلما غبتُ عنهم سألوا عني، وإذا علموا بقدومي إليهم أعدوا لي شريطًا دينيًا ليسمعوني إياه، ثم يعدونني بشريط آخر جديد.

وفي الوقت نفسه لا يردون لي طلبًا مهما كان، وإذا أحضروا شيئًا من الطعام - كالجبن والسمك - حفظوا لي منه، في الوقت الذي أجد فيه معاملة قاسية من إخواني

المسلمين، بل من أقرب الناس إليَّ والدي - سامحه الله - الذي كان يعمل على تجويعنا وتحطيم حياتنا.

ثم بدأ هؤلاء النصارى يمنعون عني الأشرطة، فكنت أشتاق إليها لجهلي، فيعدونني بها، لكن لا يوفون بوعدهم، فأصبحت حائرًا، وبصراحة كرهت المسلمين، وبدأت أتقرب إلى النصارى بشدة.

وذات مرة سألوني: ما رأيك في دين المسيح؟ قلت لهم: من الأديان السماوية ولا شك.. ثم سألتهم عن دين الإسلام... فقالوا: إن الإسلام ليس دينًا صحيحًا، قلت لهم: كيف ذلك؟ قالوا لي: ذات مرةٍ كان المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ يجلس مع تلاميذه فسألوه: أأنت هو أم يوجد أحد بعدك، فنتبعه؟ قال المسيح - والكلام لهم -: أنا هو ولا يوجد غيري.

أي أنهم لا يؤمنون بنبوة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنه كاذبٌ.

ولم يكونوا يصرحون بذلك، وإنما يأتون بكلمات معسولة، وبطرق ملتوية وهذا ما غرّني بهم، وجعلني أتقرب منهم أكثر، وأبتعد عن كل ما هو من الإسلام، حتى بلغت بهم الوقاحة والجرأة إلى شتم الحبيب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشتائم أعجز عن ذكرها، ولفرط جهلي كنت أصدقهم فيما يقولون، أسأل الله أن يغفر لي.

واستمر هؤلاء في حوارهم معي، وتطرقنا لمسألة صلب المسيح، وجَرَّنا الحديث إلى حقيقة المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ إلهًا، قالوا أولًا: نحن لا نسمي المسيح عيسى، وإنما نسميه «يسوع» قلت لهم: إن اسمه عندنا عيسى، قالوا: ألم نقل لك من قبل إن دينكم ليس بصحيح.

قلت: إذًا كيف يكون إلهًا؟ قالوا: إن الرب عندما أرسل رسله إلى الناس، وجدهم يعادون هؤلاء الرسل ويعذبونهم، فقرر الرب أن ينزل إلى الأرض لكي يدعو الناس بنفسه، ولكن لو نزل على صورته الحقيقية مات الناس جميعًا، لذا قرر أن ينزل على صورة إنسان، ويكون هو آخر الرسل إلى يوم القيامة، فاختار امرأة كانت على قدر من التقوى... إلى آخر تلك الخرافات التي يعتقدونها، والتي لا تليق بالله - عَزَّ وَجَلَّ - تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا.

ولفرط جهلي آنذاك قلت لهم: بالفعل هذا الصحيح.

وتمضي الأيام وأنا أزداد منهم قربًا، ومن الإسلام بعدًا، حتى أصبحوا يسخرون من المسلمين جميعًا، ويشتمون الصحابة رضي الله عنهم، وعلماء الإسلام كأبي حنيفة وغيره، وأنا معهم في كل ما يقولون، أسأل الله أن يعفو عني ويغفر لي.

ثم تحدثنا عن مسألة صلب المسيح، فقلت لهم: إن القرآن يقول: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء:١٥٧]، فقالوا: لقد حدثناك من قبل عن موضوع القرآن، قلت: تعنون أن القرآن مُحرَّفٌ؟ قالوا والابتسامة تملأ وجوههم: إنه لا أصل له نهائيًا.

واقتنعت بكلامهم، وكرهت ديني الإسلام، كما كرهت كل مسلم على وجه الأرض، ثم سألتهم: ما شعوركم حين تسمعون أن نصرانيًا قد أسلم؟

قالوا: كأنك مررت بشارع فرأيت كلبًا دهسته سيارة، فحزنت لذلك، ثم عدت إلى البيت ونسيت ما حدث.

أرأيت - أخي المسلم - إنهم يعتبرون المسلمين كالكلاب... عفوًا، فما كنت أريد أن أكتب كل هذا، ولكن لتتضح الحقيقة كاملة.

ثم بدأوا يدعونني بشدة، وأنتظر لقاءهم بشوق، حتى قال لي أحدهم: لماذا لا تتنصر؟ قلت: إني أخاف أن يقتلني أهلي، قالوا: لا تخف فسوف ننقلك إلى بلدٍ بعيدٍ، لا يتمكنون من الوصول إليه، وهناك سنعطيك... ما تريد... فقلت: أمهلوني إذن أسبوعًا واحدًا.

وفي هذا الأسبوع، وفي الأيام الأولى منه كنت أَسْبَحُ في بحر من التفكير والهموم والخطرات المتلاحقة، وقبل نهايته بيومين عزمت على الذهاب إليهم للتخلي عن إسلامي الذي لم أكن أعرفه حَقَّ المعرفة، وهنا أدعوكم أن تتأملوا معي لطف الله عز وجل... فبينما أنا ذاهب إليهم وقد تعلق قلبي بهم، مررت في طريقي بمسجد صغير - وكان الوقت ظهرًا - وجدت المسجد مفتوحًا وخاليًا من المصلين، فدلفتُ إليه وقلت في نفسي: سوف أرى الآن هل الإسلام حق أم باطل.. فتوضأت، وصليت ركعتين، ودعوت ربي وتضرعت

إليه أن يهديني إلى الدين الحق، فشعرت بإحساس غريب يسري في كياني ويهزني هزًا عنيفًا.

أحسست بأنني لست ذلك الرجل الذي سَبَّ دينه، وأراد أن يتخلَّى عنه من أجل حفنة من المال أو الطعام... وخرجت من المسجد مندفعًا تسوقني أقدامي إلى ذلك المصنع.

دخلت عليهم دون تحية، فإذا بهم يهابونني على غير العادة، أحسست وكأن بداخلي بركانًا ثائرًا يريد أن يتفجر... وتفجر البركان.. وتكلمت بكلام طويل كأنما قد حفظته عن ظهر قلب.. كنت أتكلم بقوة وهم يستمعون إليَّ والدهشة قد عقدت ألسنتهم.. لم أقف لحظة واحدة، وكأنما هناك قوة تدفعني للكلام... وآثار الوضوء لا زالت تتقاطر من وجهي.

أحسست بأن الله ينصرني في وجه الباطل.. قلت لهم منفعلًا: أريد أن أسألكم سؤالًا واحدًا قبل أن أتنصر، إن أجبتم عليه تنصرت فورًا - وكنت واثقًا من أنهم لن يجيبوا عليه -.

قلت لهم - متهكمًا -: لنفرض أن المسيح هو الإله - ففرحوا بذلك -، قلت: فكيف كان حال الكون والمسيح - والرب حسب زعمكم - موجود في بطن امرأة من خلقه؟ كيف كان حال الدنيا ونظام الكون بأكمله؟ وقد قتل المسيح الإله - بزعمكم - هل الإله يقتل، ويصلب، وهل الإله تحمله امرأة في بطنها؟!

فرأيت الوجوم بادٍ على وجوههم، وقد صوبوا إليّ أبصارهم وهم في غاية الدهشة.

قلت لهم - متهكمًا -: لنفرض أن المسيح إله، ولكن أليس الذي قتل المسيح وصلبه أقوى منه؟ فالأولى أن نعبد من قتله وصلبه، ولكن أين الذين قتلوه على زعمكم؟ لقد ماتوا جميعًا... ومن الذي أماتهم؟ إنه الله ﷻ؛ فإن للكون إلهًا واحدًا، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد.

قلت لهم: أجيبوا... فلم يجيبوا وبهتوا جميعًا، فخرجت مسرعًا وكأني ملكت الدنيا بأسرها، وتمنيتُ لو أحتضن كل مسلم يمشي على وجه الأرض، وأطلب منه السماح بسبب ما ارتكبته في حقه... لقد خُنْتُ ديني وكدت أن أتخلى عنه، ولكني أحمد الله الذي هداني وأعادني إليه، ووالله إن ديني خير من المال والطعام ومن كل متاع الدنيا الزائل، ولكن هل تركني أهل الباطل؟ كلّا، فقد أرسلوا ورائي أحد «البلطجية» ودفعوا له مبلغًا من المال لضربي والاعتداء عليَّ، ولكني لم آبه بذلك، بل كنت مسرورًا لأنني سأضرب في سبيل الله، بعد أن انتصرت لديني وعقيدتي:

وَلَسْتُ أُبَالِي حِيْنَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا ... على أَيِّ جَنْبٍ كَانَ فِي الله مَصْرَعِي

وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الإِلَهِ وإِن يَشَأ ... يُبَارِكْ عَلَى أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ

وتركت القاهرة وعدت إلى بلدتي الصغيرة، ولم أهتدِ بعد الهداية الكاملة، فقد كنت أدخن بشراهة، وأتردد على المقاهي، وأستمع إلى الغناء المحرم، حتى قابلت رجلًا آخر نصرانيًا وخضت معه في حوار حول الدين، فرآني أحد الإخوة الفضلاء فأبعدني عن هذا النصراني الكافر - وكان يعلم ما حدث لي بالقاهرة -، وعرفني على أحد المشايخ الفضلاء، فأخبرته بما حدث لي، فجعل يتعهدني بالرعاية والاهتمام، وأخذ بيدي إلى بر الأمان، فبدأت أصلي وأقترب من المسلمين وأحبهم، وأسير على النهج الإسلامي القويم.

وأنا الآن في العشرين من عمري... وإني بهذه المناسبة أدعو المسلمين عامة والشباب خاصة أن يعضوا على دينهم، وألا يختاروا عنه بديلًا، فهو الدين الحق الذي لا يقبل الله دينًا سواه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥][1].

وإنما نقلت هذه القصة بطولها؛ لأنها يظهر فيها بجلاء كيف يفعل الجهل بدين الله - وَجَلَّ - بأهله، حتى قَبِلَ هذا الأخ التائب في فترة من الفترات ادعاء النصارى - قبحهم الله - بأن دين الإسلام باطل، وبأن القرآن لا أصل له، وأن ما هم عليه من هراء وخرافة هو الدين الحق، ويظهر في القصة كذلك خبث النصارى ومكرهم، مع جهلهم وغبائهم.

(١) «العائدون إلى الله» (٢٢٠-٢٢٦).

وفي القصة موقف من مواقف الإيمان في صدق التوبة؛ حيث دخل هذا الشاب التائب بيت الله وصلى، مع أن حالته الإيمانية قبل هذا الوقت كانت متردية إلى أقصى غاية، ولكنه لجأ إلى الله ﷻ، ودعاه واستعان به، فثبته الله - ﷻ - على الإسلام، وألهمه الحجة، حتى أفحم النصارى، وظهر عليهم مع قلة بضاعته من العلم النافع والعمل الصالح، فالمسلمون - مهما قل علمهم وضعفُ يقينهم - هم أقوى من أصحاب العقائد الخربة؛ وذلك لقوة الإسلام الذي ينتسبون إليه؛ لأنه الدين الحق: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩].

ومن طريف ما ينقل أن جماعة من المنصرين قاموا بتنصير عدد كبير من المسلمين، مستغلين ما هم فيه من الجهل والحاجة، وبعد أن فرغوا من تعميدهم في الكنيسة قالوا لهم: والآن ماذا تريدون؟ قالوا: نريد أن نذهب إلى مكة.

فَحُب الإسلام متمكن من قلب المسلم مهما ضعف إيمانه وقل علمه، ومهما وقع في معصية الله ﷻ، وكثير ممن أسرف على نفسه في المعاصي إذا اتهمه أحد بالكفر أو بالخروج من ملة الإسلام فإنه ينزعج انزعاجًا شديدًا.

وإنما وقع أكثر المسلمين في المعاصي بالأماني الباطلة والخدع الكاذبة، يوقعهم الشيطان في المعاصي، ويمد لهم حبال الأماني والغرور، ويقول لهم: إن الله غفور رحيم، أو من فقهه في الشر يرضيهم ببعض الأعمال الصالحة، فيصلي الجمعة والعيدين، وقد يتصدق بالقليل من المال، فيظن أنه على الطريق، ولكن مثل هذا المتهاون في دين الله ﷻ، المفرط في إسلامه يسهل على الشيطان أن يدفعه إلى ما يخرجه من ملة الإسلام.

قال السلف رحمهم الله: المعاصي بريد الكفر، أي: رسوله، فالعبد الذي يكثر من معصية الله - ﷻ - يدخل في سلطان الشيطان فيعده ويمنيه، ويضله ويغويه؛ ولا يرضى منه دون الكفر ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، ولكن الله - ﷻ - يتفضل بفضله ورحمته على من يشاء من عباده، كما تفضل على صاحب هذا الموقف الإيماني، بعد أن كاد يخسر إسلامه، فيخسر بذلك سعادة الدنيا والآخرة وشرف الدنيا والآخرة، نسأل الله العافية والصحة.